التجسد ومعمودية الرب يسوع
بشارة تؤهلنا للقيامة

دكتور

جورج حبيب بباوي

يناير ٢٠٠٨

www.coptology.org

عيد الميلاد المجيد هو "عيد تجسد الكلمة" وليس ميلاد طفل اسمه يسوع في بيت لحم. فقد حرصت الأناجيل الأربعة على أن تؤكد أن الذي ولد من القديسة مريم هو "المخلص"، "المسيح الرب"، وأن "الكلمة صار جسداً وحل بيننا". وشتان بين الاحتفال بميلاد طفل، وبين الاحتفال بتجسد ابن الله، وظهور الله في الجسد. ولذلك، فمراجعة ما نقول وما نكتبه ضروري لكي تكون لنا قوة البشارة بالحياة الجديدة.

لقد ولد "آدم الثاني"، أو "آدم الأخير" (١كو ١٥: ٤٥ - ٤٧)، وكان في ميلاده بالجسد بداية لعمل الروح القدس نفسه في خلق الخليقة الجديدة. لقد كان دخول الروح القدس في شركة مع الابن في تكوين "الجنين"، أي الحبل، ثم الولادة، هو بداية زرع الحياة الجديدة الآتية من فوق. الحياة التي تشق طبقة التراب الأولى، أي تلك التي من آدم وترفع رأسها في الرأس الجديد يسوع المخلص. ويظل سر الحبل من الروح القدس محفوظاً غير معلن لا يعرفه إلا الثالوث، ولكن تدركه العذراء التي فتحت "رحم" البشرية، فصارت الأم الجديدة التي تعلن في حبلها وفي ولادة ابنها، العصر الجديد، عصر الخلق الجديد، الذي بدأ في "بيت لحم الصغرى" نقطة التقاء السماء أي اللاهوت، بالأرض أي الإنسان، مدينة "داود الملك" التي فيها ولد "الملك الحقيقي" يسوع المسيح لكي يؤسس مملكة حقيقية لملوك يملكون معه ويجلسون معه على عرشه الإلهي (رؤ ٣: ٢١).

قال الرب بعد تجسده: "لقد كمل الزمان"، وقال الرسول: "في ملء الزمان"، وكلا العبارتين تعني أن الزمان قد توقف عن أن يكون له دور في لقاء الله مع الإنسان. ولم يعد لدينا زمان تصلح، أو لا تصلح فيه الصلاة والعبادة حسب تحذير الرسول بولس: "فلا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب، أو من جهة عيد أو هلال أو سبت، التي هي ظل الأمور العتيدة، وأما الجسد فللمسيح ..." (كولوسي ٢: ١٦ وما بعده).

إن تجسد الرب يسوع - كما يقول القديس غريغوريوس النزينزي - "حـل قوة قوانين الطبيعة أي الخليقة الأولى"، وجاء هذا التغيير الجذري بالتجسد، أي باتحاد اللاهوت بالناسوت دون وسيط، ودون أي دور للزمان، فقد تحول مكان ميلاد الرب بالجسد إلى بيت الخليقة الجديدة، لأن الروح القدس قد دخل في "زمان التجديد" لكي يضع بداية غير تلك التي بددها آدم في الفردوس القديم.

وجاء الرب يسوع بالحياة الجديدة التي ولدت، ليس كفكرة أو قصـة، بـل حقيقة "الذي رأيناه، الذي سمعناه، الذي لمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة" (١يوحنا ١: ١ - ٣)؛ لأن كلام البشارة صادر عن حقيقة تجسد الرب وليس العكس، فقد صـارت كل كلمة تقاس أو توزن بميزان تجسد الكلمة، وهو ميزان دقيق جداً، هـو مقيـاس "التمييز" بين الحق والباطل والخير والشر، المحبة والبغضة والعداوة، الله كمـا هـو في حقيقة تواضعه عندما يقبل أن يكون ملموساً حياً ساكناً بيننا في جسده الخاص بـه، وأيضاً الإنسان كما يجب أن يكون بعد أن أشرق عليه نور الحياة بتجسـد الكلمـة. وصار الكلمة المتجسد "البكر بين إخوة كثيرين"، وهي أحد ملامح البشارة التي عثـر فيها أريوس ونسطور وأوطاخي وبعض أدعياء المعرفة .. الخ. فقد حمل إلينـا الابـن الوحيد الجنس هذه الصفة الأقنومية الخاصة به واتحدت هذه الصفة - كمـا يقـول القديس جيروم - بالتجسد، فصار "الابن الوحيد بالجسد من العذراء التي لم تلد آخر بعده. لكن بنوة الابن الأزلية ليست صفة تمنع المفديين من الشركة في بنوته؛ إذ يبقـى هو دائماً الرأس، دائماً المتقدم، ودائماً "البكر" الذي له حق الوراثة حسب الشـريعة القديمة، والذي له حق توزيع هذا الميراث حسب الشريعة الجديدة.

هذه هي - إذا جاز التعبير - إرهاصات القيامة الآتية، فكـل اسـتعلانات الخلاص لها "جذر" واحد وهو الحياة التي تتدفق من فوق من الله نفسه لكـي تغـرس الولادة الجديدة "بالغرس الجديد" يسوع الناصري، وهي حياة لا يقف أمامها عائق أو

حاجز.

وقد نظر رسول المسيح إلى قوة المحبة الإلهية فقال: "المحبة لا تسقط أبداً"؛ لأنها "توحد"، تهدم لكي تبني، تقبل الولادة لكي تعطي ولادة، تقبل الصليب لكي تبيد الموت وتعلن القيامة، وتقوم ناهضة من أوجاع الموت والقبر منتصرة؛ لأن المخلص يسوع ليس ضحية غضب الآب ولا هو عبد سقط تحت حمل الموت الثقيل، ولذلك قال رسوله وشاهده: "لم يكن من المستطاع للموت أن يمسك به" (أع ٢: ٢٤).

كانت إرهاصات القيامة في غرس البذرة، حبة الحنطة التي كان يجب أن تقع في الأرض، ولكنها وقعت في الأرض وماتت بعد أن مسحت بالروح القدس. وبين ميلاد الرب بالجسد ومعموديته التي وصفها الرب نفسه بأنها "الصبغة" (مرقس ١٠: ٣٩) يأتي الاستعلان: ما تم في السر والخفاء عندما أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، تحت الناموس، صار الآن علانية "أنت هو ابني الحبيب" الذي يأتي ومعه مسحة الروح القدس (١يوحنا ٢: ٢٠)، فالروح الخفي لم يعد خفياً، وسر الولادة يعلن الآن للعالم وليس للرعاة والمجوس والذين كانوا ينتظرون العذراء، بل للكل، بل ويدخل حياة الكنيسة بعد العنصرة في المعمودية؛ لأن الرب عندما قال: "الروح يأخذ مما لي ويعطيكم" (يوحنا ١٦: ١٤)، فقد كان يؤكد هذه الشراكة التي مصدرها الحقيقي الجوهر الواحد للثالوث القدوس ... ولذلك ولد من الروح القدس، ثم مسح بالروح القدس، وصلب بالروح القدس (عب ٩: ١٣)، وقام بالروح القدس (رو ٨: ١١).

هذه هي شركة الحياة التي بدأت والتي لا تقف أمام عائق، بل تفتح حضن الآب (يو ١: ١٨) لنا. لأن الكل قد حدث في حضن الآب نفسه، فهو ليس مكاناً، بل قوة المحبة الكامنة في جوهر الثالوث، وينبوع الأزلية الحقيقي الذي جرف الموت وأعطى الخلود ومنح الإنسان أن يكون شريكاً ليسوع المسيح نفسه في عرش إلوهيته لكي يجلس مع يسوع كإله (رؤ ٣: ٢١).

في هذه الأعياد التي نرى فيها قسمات القيامة في "الغرس" الجديد، وفي مسحة الروح القدس، مسحة عدم الفساد التي أقامت يسوع من بين الأموات، علينا أن نكون على حذر من سموم الهرطقات القديمة: فلا نقع ضحايا للأريوسية التي تنكـر حقيقـة تجسد ابن الله (القديس أثناسيوس المقالة الثالثة ضد الأريوسيين فقرات ٣٣، ٣٤، ٣٥).

أو النسطورية الجامحة التي تعتدي على سر الإفخارستيا في وقاحة لتقول إننـا نأكل الناسوت فقط، أو تحت عباءة نسطور تقول إن تأله جسد الرب يسوع قاصـر عليه وحده، وبذلك تحرم المؤمنين من القيامة ومن الخلود في السماء في عدم فساد.

أما سم الأوطاخية فهو عائد إلى ضعف الإيمان بالطبيعتين في الرب الواحـد يسوع المسيح؛ لأن المسيح طبيعة واحدة متجسدة من طبيعتين الله الكلمة والإنسـان؛ ولذلك فإن تأله الناسوت هو تأكيد على أنه ناسوت ويبقى ناسوتاً كمثال لما سنكون عليه في المجد الآتي.

كل عام وأنتم جميعاً بخير

د.جورج حبيب بباوي

٧ يناير ٢٠٠٨